

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ» ٢٧ شعبان ١٤٤٢ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الصَّوْمُ عِبَادَةٌ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَاتِ، وَقُرْبَةٌ مِنْ أَشْرَفِ الْقُرْبَاتِ، وَطَاعَةٌ مُبَارَكَةٌ لَهَا آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ الْكَثِيرَةُ الْعَاجِلَةُ وَالْآجِلَةُ: مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفُوسِ، وَإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَحِفْظِ الْجَوَارِحِ وَالْحَوَاسِّ مِنَ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ، وَتَهْدِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَفِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى تَحْصِيلِ الْأَجُورِ الْعَظِيمَةِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ الْمُهِلِكَةِ، وَالْفَوْزِ بِأَعَالِي الدَّرَجَاتِ مَا لَا يُوصَفُ. وَالصَّيَامُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَطْهِيرِ النَّفُوسِ مِنْ أَذْرَانِهَا، وَتَزْكِيَتِهَا بِتَهْدِيبِ أَخْلَاقِهَا، وَتَنْقِيَتِهَا مِنْ عُيُوبِهَا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَرْقِيقِهَا، وَزَرْعِ التَّقْوَى فِيهَا وَتَقْوِيَةِ خَشْيَتِهَا مِنْ خَالِقِهَا وَبَارِيهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ فَرْضِ الصَّيَامِ هِيَ تَحْقِيقُ التَّقْوَى. وَالتَّقْوَى كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ خِصَالِ الْخَيْرِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكِ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَالْحَذَرِ مِنْ مَزَالِقِ الشَّهَوَاتِ، وَاتَّقَاءِ الشُّبُهَاتِ. وَلِلصَّوْمِ أَثَرٌ وَاضِحٌ فِي الْإِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُ الْقَلْبَ وَيُذَكِّرُهُ بِاللَّهِ، وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّوَاعِلَ الَّتِي تَصُدُّهُ عَنِ الْخَيْرِ أَوْ تَجُرُّهُ إِلَى الشَّرِّ، وَيُحِبِّبُ إِلَى الصَّائِمِ الْإِحْسَانَ وَبَذَلَ الْمَعْرُوفِ؛ وَلِذَا يُشَاهَدُ تَسَابُقُ مُعْظَمِ الصَّائِمِينَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَتَجَافِيهِمْ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ، وَبُعْدُهُمْ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَتَنَافُسُهُمْ فِي جَلِيلِ الْقُرْبَاتِ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ لَشَهْرَ رَمَضَانَ فَضَائِلَ عَظِيمَةً، يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ اغْتِنَامُهَا، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهُ ضَيْفٌ عَزِيزٌ يَزُورُنَا كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَحْتَفِيَ بِهِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتُهُ وَطَعَامُهُ مِنْ أَجْلِي». وَهَآكَ أَخِي الْمُسْلِمُ بَعْضُ هَذِهِ الْفَضَائِلِ:

الأولى: مُضَاعَفَةُ أَجْرِ الصَّائِمِينَ لَا تَنْحَصِرُ فِي سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ. كَمَا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا،

إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي».

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ»: قَوْلُهُ: «إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ أَعْمَالَ الْبِرِّ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ يَجْزِي بِهَا، فَنَرَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَصَّ الصَّوْمَ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى جَزَاءَهُ؛ لِأَنَّ الصَّوْمَ لَا يَظْهَرُ مِنْ ابْنِ آدَمَ بِلِسَانٍ وَلَا فِعْلٍ، فَتَكْتَبُهُ الْحَفَظَةُ، وَإِنَّمَا هُوَ نِيَّةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِمْسَاكٌ عَنْ حَرَكَةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالنِّكَاحِ، يَقُولُ: فَأَنَا أَتَوَلَّى جَزَاءَهُ عَلَى مَا أَحَبُّ مِنَ التَّضْعِيفِ، وَلَيْسَ عَلَى كِتَابٍ كُتِبَ لَهُ.

الثَّانِيَةُ: الْإِخْلَاصُ فِي الصَّيَامِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ. فَالصَّيَامُ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، إِذْ بِإِمْكَانِ الصَّائِمِ أَنْ يَأْكُلَ مُتَخَفِيًا عَنِ النَّاسِ، فَإِذَا حَفِظَ صِيَامَهُ عَنِ الْمَفْطَرَاتِ وَمُنْقِصَاتِ الْأَجْرِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ إِخْلَاصِهِ لِرَبِّهِ، وَإِحْسَانِهِ الْعَمَلَ ابْتِغَاءً وَجْهِهِ، كَمَا أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي».

الثَّالِثَةُ: حُصُولُ الْفَرَحِ لِلصَّائِمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَيَفْرَحُ عِنْدَ فِطْرِهِ بِمَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ مِمَّا كَانَ مَمْنُوعًا مِنْهُ، وَيَفْرَحُ فِي الْآخِرَةِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ». وَهَذَا مِنَ الْفَرَحِ الْمَحْمُودِ؛ لِأَنَّهُ فَرَحٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الرَّابِعَةُ: خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. فَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الرَّائِحَةَ مُسْتَكْرَهَةٌ عِنْدَ النَّاسِ، لَكِنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ؛ لِأَنَّهَا نَاشِئَةٌ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَكُلُّ مَا نَشَأَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَهُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ، يُعَوِّضُ عَنْهُ صَاحِبُهُ مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ وَأَطْيَبُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

الخامسة: الصَّيَامُ يَبْقَى صَاحِبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، كَمَا عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالصَّيَامُ جَنَّةٌ». أَيُّ: وَقَايَةُ وَسِتْرٌ مِنَ النَّارِ، وَمِمَّا يُؤَدِّي إِلَيْهَا، كَمَا رَوَى الْجَمَاعَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ».

السادسة: دُعَاءُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ مُسْتَجَابٌ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﻋَﻠَﻴْكَ: وَعِزَّتِي لَا أَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

السابعة: اخْتَصَّ اللَّهُ الصَّائِمِينَ بَبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِكْرَامًا لَهُمْ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، كَمَا فِي

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ، أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ». وَانْظُرْ يَا أَخِي وَفَقَّكَ اللَّهُ، كَيْفَ يُقَابِلُ عَطَشَ الصَّوَامِ فِي الدُّنْيَا بَبَابِ الرِّيَّانِ، فِي يَوْمٍ يَكْثُرُ فِيهِ الْعَطَشُ؟ جَعَلَنَا اللَّهُ مِمَّنْ يَشْرَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَإِنَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

الثامنة: الصَّوْمُ مِنْ أَسْبَابِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

التاسعة: الصَّوْمُ يَشْفَعُ لِصَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ مِصْرَ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصَّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَامُ: أَيُّ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ»، قَالَ: «فَيُشَفَّعَانِ».

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ كَانَ نَبِيُّنا ﷺ غَايَةً فِي الْحِدِّ فِي الْعِبَادَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ ازْدَادَ اجْتِهَادُهُ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ [أَي: تَرْمُ وَتَتَشَقَّقُ]، فَقُلْتُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟ فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ»: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فِيهِ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي

الْعِبَادَةِ وَالْخَشْيَةِ مِنْ رَبِّهِ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا أَلْزَمَ الْأَنْبِيَاءُ أَنْفُسَهُمْ بِشِدَّةِ الْخَوْفِ لِعِلْمِهِمْ بِعَظِيمِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ ابْتَدَأَهُمْ بِهَا قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا فَبَذَلُوا مَجْهُودَهُمْ فِي عِبَادَتِهِ لِيُؤَدُّوا بَعْضَ شُكْرِهِ.

أَمَّا عَنْ حَالِهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جَبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.